المساواة

بحث فلسفي اجتماعي

توطئة : للفيلسوف الاجتماعي الطائر الصيت « فولتير » كتابات شائقة وابحاث ممتعة وانتقادات مرة تناول بها الانظمة القديمة الجافة وضربها بمعوله ضربات كادت تتلفها من جذورها . وقد اشتهر هذا الفيلسوف بحرية افكاره ولعل هذه الحرية نفسها هي التي اقامت عليه قيامة رجال الدين حتى رموه بالكفر والزندقة . ولسنا نقصد في هذه المجالة ايراد سيرة هذا الرجل العظيم ولكنا جئنا الى قراء المقتطف الاغر ممرين هذه المقالة بشيء من التصرف وهي ولا ريب تحوي افكاراً خليقة بالاطلاع وحرية بالنشر . قال الفيلسوف :

من البديهيات التي لا تحتاج الى برهان ان جميع المخلوقات الارضية تتمتع بمميزات طبيعية واحدة . وهي كذلك حينما تتبادل وظائفها الحيوانية وتمارس عاداتها الغريزية . ان ملك العين والمغول وبادشاه تركيا لا يمكنهم ان يوجهوا الى احقر عبيدهم هذه العبارة « اني امنعك عن الهضم » لان جميع الحيوانات على اختلاف انواعها متساوية بما تؤديه من الوظائف الطبيعية

بيد ان الحيوانات تمتلك علاوة عما ميزة الاستقلال . فانك ترى مثلاً ثوراً يحاول الدنو من بقرة فيطرده ثور آخر اقوى منه ناطحاً اياه بقرنيه فيذهب ليبحث عن خلية ثانية في غيط آخر ويعيش حراً طليقاً . والديك الذي يتغلب عليه ديك آخر يذهب ويتعزى في قن آخر بين دجاجات اخرى . ولكن هذه المميزات لا تتناولنا نحن الذين ميزتنا الطبيعة بالعقل والنطق . فللوزير الاصغر عندنا ملء السلطة بنفي احد وجهاء المدنية . وللوزير الاكبر السلطة كلها بنفي الوزير الاصغر الى « تنادوس » مثلاً . وللبادشاه مطلق السلطة بنفي الوزير الكبير الى رودس . ومن جهة اخرى ترى فرقة « الانكشارية » تثور على البادشاه وتزجه في السجن مكبلاً بالقيود وتقيم مكانه بادشاهاً آخر ينفي اعيان الشعب ووجهاءه حسب ارادته واختياره . ولو كانت حدود سلطته المقدسة تتوقف عند هذا التمرين البسيط لهانت المسألة كثيراً

لو كانت هذه الكرة الارضية كما يجب ان تكون ولو كان الانسان يجد في اي مكان يأوي اليهِ فيها مؤونة يومهِ دون تعب ولا مشقة وهواء موافقاً لطبيعتهِ ومكاناً يسند اليهِ رأسهُ لكان من الواضح بل من المستحيل ان يستخدم انسان احداً من ابناء جنسهِ. فتمتلئ هذه الارض بثمرات السلام ويتطهر الهواء الذي هو لحياتنا الزم من الخبز والماء ويصبح الانسان ولا حاجة لهُ الى المسكن الشاهق والفراش الوثير فيعتاض عنهما بمسكن وفراش الظبي وغدر الايائل فحينئذٍ ترى الجنكيزخان والتيمورلنك ولا خدم لهما غير اولادهما وهؤلاء يكونون شركاء النفوس مهذبي الاخلاق الى درجة لا يمتنعون فيها عن خدمة آبائهم في شيخوختهم . ولكن الانانية وحب التسلط من جهة والفقر والتعاسة من جهة اخرى كل هذه مؤثرات تدفع الانسان الى ارتكاب الجرائم والمحرمات وتدعوهُ ان يسحق بقدميهِ كل ما من شأنهِ ان يكون داعياً الى انتقاص هنائهِ وقلة لذاتهِ الدنيوية

نعم لو تسنى للانسان ان يوجد في الحالة الطبيعية التي يتمتع بها جميع ذوات الاربع غير الداجنة والطيور والزواحفات لاصبح سعيداً مثلها ان لم يكن اسعد منها بحيث يصبح مبدأ السلطة والتملك وهما زائلا بل امراً مستحيلاً لا يفكر فيهِ احد . اذ ما الفائدة من الاتيان بالخدم والحشم اذا كنت غير محتاج الى خدمة ؟ فالخزف كلهُ اذا كانت خزائني مملوءة ذهباً وفضة وخلوها منهما يكون حاجزاً بيني وبين اللصوص . واذا كان السلاح الذي يستعملهُ الناس آلة للدفاع عن النفس فربما كانت قبضة المسدس الذهبية نفسها مجلبة للصوص

ولو فرضنا والحالة هذه انهُ خطر لاحد اصحاب الرؤوس القوية المفيدة والسواعد المفتولة الشديدة ان يستعبد جارهُ الاضعف منهُ فهذه الرغبة تصبح امراً مستحيلاً . لان الضعيف يصبح على « الدانوب » قبل ان يتهيأ القوي لتنفيذ مشروعهِ على « الفولغا »

وهكذا يصبح الناس متساوين بحكم الضرورة اذا خلت اغراضهم وحاجاتهم . بيد ان الفقر والشقاء اذا اتصلا بالجنس البشري تكون نتيجة اتصالهما استخدام الانسان لاخيهِ الانسان . ولا ريب ان الشقاء الحقيقي لا ينتج من وجود التفاضل بين الناس بل من تلك الغريزة الطبيعية التي يسطنا امرها فيما تقدم وهي الانانية التي لا يزال الانسان يميل اليها بكليتهِ . وليس من المهم كثيراً ان يلقب هذا

بصاحب العظمة ولا ذاك بصاحب القداسة . ولكن الصعوبة كلها هي في خدمة هذا او ذاك فلنضرب لك مثلاً

عائلة كثيرة الاعضاء حرثت ارضاً جيدة و بذرت بذورها فيها فنمت وأثمرت ثماراً صالحة . وعائلتان بالقرب منها لا تمتلكان سوى اراض مجدبة قاحلة لا تنبت سوى الشوك والعليق ولا تخرج غير الكرات والبلان فيتحتم اذ ذاك على العائلتين الفقيرتين ان تخدما العائلة الغنية او ان تقتلاها وتمحوا أثرها لتحافظا على حياتهما لان المال كما اتفقنا قوة مادية تكفل الحياة. وربما قامت احدى العائلتين الفقيرتين تعرض خدمتها على العائلة الغنية لكي تأخذ مقابلها خبزاً . بينما تهجم عليها العائلة الاخرى لاغتصاب ممتلكاتها بالقوة فتعود منذحرة مقهورة . فالعائلة الاولى هي مصدر الشقاء الذي يتولد من الحاجة . والعائلة الثانية هي مصدر العبودية التي هي مظهر من مظاهر القوة — القوة المادية لا غير

ومن هنا يتضح انهُ من المستحيل في هذه الكرة الارضية البائسة الا يكون تفاضل بين الناس وانقسام يمكن رده الى قسمين رئيسيين . القسم الاول وهو القسم القوي بالمادة . والقسم الثاني وهو الفقير الذي لا يملك هذه القوة المادية فيضطر الى الخدمة المنهكة . ولكل من القسمين المذكورين فروع متعددة لا تقع تحت حصر ولا عد

وقد يعترض بعض الفضوليين بعد ان تحملهُ الاقدار تابعاً لقسم من هذه الاقسام قائلاً « اني رجل مثلكم . ولي يدان ورجلان وكبرياء كما لكم . وعقل كعقلكم واني مواطن « للقديس مارتن » و« راكوز » و« توجيرار » . فاعطوني حصتي من الارض . فيها نحو خمسمائة الف مليون فدان لتزرع بين مخصب وقاحل . ولسنا سوى مليار من الحيوانات ذوات القامتين . فاذا توزعت هذه الاراضي علينا لحق الفرد منا خمسون فداناً . فانظروا الي بعين العدالة يا قوم . اعطوني خمسين فداناً » فيجاب :

« اذهب وخذها من عند الكفريين او الهوتنتوت او اهل ساموى (قبائل لم تتحضر بعد) دبر امرك معهم بطريقة حبية لان جميع الاقسام هنا قد توزعت على اصحابها . فاذا اردت ان تحصل عندنا على المأكل والملبس والمسكن والدفء فاعمل لنا كما كان يعمل ابوك قبلك . اخدمنا وافعل كل ما من شأنهِ ان يزيد في

هنائنا ورفاهتنا وعندئذٍ فاننا نعطيك ما تستحقهُ خدمتك من الاجرة . والاَّ تصبح مضطرًّا للاستعطاء والاستجداء. وهذا مما يخالف طبيعتك ويتعبك بالحقيقة ان تكون مساويًا للملوك حتى لشيوخ القرية. فاذا كنت تريد ان تحافظ على كرامة نفسك فاعمل لتحصل على قوتك والاَّ فتكون عالة على الآخرين اذ تنزل فيك صورة الصمد المتعال فتهيم شاكيًا وتمد يدك باكيًا »

***

ليس كل الفقراء بائسين على الاطلاق . ان القسم الاكبر منهم قد ولد في هذه الحالة . والعمل الدائم المتواصل والجهاد الشاق المستمر يمنعانهم من ان يشعروا كثيراً بثقل الحالة التي يكونون فيها . ولكن حينما يشعرون بثقلها ويتململون من وطأتها يميلون بكليتهم الى امتشاق الحسام فتلتهب الحروب وتسيل الدماء انهاراً كما حدث في رومه حينما نهض حزب الشعب ضد حزب الشيوخ. وكما نهض حزب الفلاحين في المانيا وانكلترا وفرنسا. بيد ان جميع هذه الحروب لا بد من انتهائها عاجلاً او آجلاً باستخدام الشعب ووضعهِ تحت نير العبودية الثقيل. لان الاغنياء يتملكون المال والمال ملك الكل في حال من الاحوال . اقول في حال فقط لانهُ لا يمكن ان يأتي بنفس النتيجة اذا اريد استعمال قوتهِ بين شعب وآخر . فالشعب الذي يكون معتاداً استخدام الحديد لا بد ان يخضع الشعب الغني المنهمك في جمع الفضة والذهب في خزائنهِ واهرائهِ وقد قلَّت عندهُ الشجاعة

يبرز الانسان الى عالم الوجود وفيهِ ميل غريزي شديد الى السلطة والغنى واللهو والسرور وحب كثير للكسل والبطالة . اي ان كل انسان يحب ان يمتلك مال الآخرين ونساءهم وبناتهم ويبسط سلطتهُ عليهم ويضطرهم الى القيام بجميع ما تتطلبهُ شهواتهُ الذاتية بينما هو لا يقوم بعمل من الاعمال او بالحري لا يعمل الاَّ عملاً سهلاً لا يحتاج الى كبير عناء او مشقة . فانت ترى اذاً انهُ يستحيل وجود المساواة بين الناس. كما انهُ لا يمكن خطيبين او استاذين في الثيولوجيا ان لا يحسد احدهما الآخر ويسعى كل منهما للفوز على الآخر لان حب السلطة واحراز الغلبة امران غريزان في الانسان(١)

(١) (المقتطف) كان هذا هو الميل المتغلب في عهد فردريك ولكنه زال الآن بالتربية والتعليم مما لا حاجة الى بيانه وخصوصاً بين الامم العالية الكعب في الحضارة

ان النوع الانساني — كما انت تراهُ الآن — لا يمكنهُ السير على انظمتهِ الحاضرة اذا لم يكن فيهِ عدد كبير من الفقراء الذين لا يمتلكون من حطام الدنيا شيئاً . اذ من المؤكد ان الرجل الذي يكون متمتعاً بمسرات الحياة حسب ذوقهِ وهواهُ لا يمكنهُ ان يهجر ارضهُ ليحرث ارض سواهُ . والغني الذي ينظر الى العالم من وراء نظاراتهِ الذهبية لا يمكن ان يسير في ضوضاء النهار عاملاً مجتهداً . وانك اذا احتجت يوماً الى زوجي احذية فلا تذهب وتطلب من معلم موسيقى ان يصنعها لك . فالمساواة اذاً هي مبدأ طبيعي ولكنهُ في الوقت نفسهِ وهمي لا وجود لهُ بتاتاً

ولكن لماذا نرى جميع الناس مفرطين في كل شيء عند المقدرة ؟ فهم هم الذين بمزيد افراطهم قد اوجدوا هذا التفاضل العظيم فيما بينهم . فادعى قسم منهم في مختلف الامصار انهُ لا يحق لوطني ما الخروج من بلدة جعلتهُ الاقدار مولوداً فيها . ومعنى هذه الشريعة هو « ان هواء هذه البلاد فاسد وحكومتها ظالمة مختلة النظام بحيث نضطر ان نحظر الخروج منها على اي كان خوفاً من خروج جميع سكانها منها » ولكنك اذا عملت خيراً من ذلك فانك تولد في شعبك الميل لمداومة السكنى في بلدك وفي الغرباء ليتقاطروا اليها بكثرة

ولا يغربن عن بالنا ان لكل انسان ملء الحق ان يعتقد نفسهُ — عند ما يخلو بنفسهِ — مساوياً تماماً للآخرين من ابناء جنسهِ . ولكن ليس معنى هذا اعطاء طباخ احد الكرادلة الحق حتى يتمرد عن تقديم الطعام لمعلمهِ . ولكن الطباخ يحق لهُ ان يقول « اني رجل كمعلمي . ولدت مثلهُ في البكاء والدموع . وسأموت مثلهُ في الاحزان نفسها . الصلاة التي تقرأ على جثمانه تقرأ على جثتي ايضاً . ونحن نتمم الوظائف الحيوانية عينها . فاذا اتاحت الاقدار يوماً باحتلال مدينة رومه واصبحت حينئذٍ كردينالاً ومعلمي طباخاً فاني اضعهُ في خدمتي » ان ما تقولهُ يا هذا حق ومعقول . ولكن قبل ان تتيح الاقدار للاتراك احتلال رومة يجب عليك ان تتمم واجباتك . والاَّ فان النظمة الهيئة الاجتماعية تختل باكملها وتزداد فساداً حتى تتقوض اركانها - وعندئذٍ : فالويل لسكان الارض والويل لمحبي الحياة »

الاسكندرية اميل الحاج